الأطر النظرية الكبرى المؤطرة للبحث العلمي في علوم الإعلام والاتصال*

مقدمة:

ليس من السهل والبديهي القيام ببحث علمي، خصوصا في مجال حديث ومتشعّب كمجال علوم الإعلام والاتصال. فالمسائل التي يتناولها الباحث وهي في الغالب مألوفة لديهم، وهذه الألفة هي عائق حقيقي أمامهم، لأنها تفصلهم عن الإحساس العام ومنعهم من إحداث التغيّر في النظرة والخروج من التغرب والأحكام المسبقة. فالباحث المبتدىء لا يستطيع أن يتحول ببساطة، ومن يوم لآخر إلى صانع ومنتج أو ناقد للمعارف التي غرق لفترة طويلة في تلقّيها واستيعابها. وهنا يحصل تبدل مفاجئ في العلاقة مع المعرفة من المستحيل أن يتم دون صعوبات.

من جهة أخرى، لا ننسى أن تمرين البحث العلمي يفترض ثقافة علمية واسعة الى أبعد الحدود، لكي يتمكن الباحث من تجاوز كل الصعوبات المنهجية، مع اكتساب التقنيات التي تمكنه من ذلك... كل هذا لا يعني أن نتقيد بخطاب المنظرين المجتهدين في المنهجيات و أنواعها وأصولها ومدارسها، الذين يطيلون الحديث حول ما يجب و ما لا يجب أن يفعله الباحث، دون أن يوضحوا ارشاداتهم بالأمثلة الواقعية. فكل باحث يدرك أن المنهجية ليست في كل الأحوال الا وسيلة، وأنه لا يوجد منها ما هو مثالي ومناسب للتطبيق بالمطلق. في حين أن الخطاب حول البحث، وهو يحدد القواعد الثابتة، ينسى أن المنهجية "المناسبة" تبقى دامئا مرتبطة بموضوع البحث، وتعرف بأنها المعادلة المطلوبة ما بين التقنيات المستخدمة والهدف النهائي لمشروع بحثي. **(العبد الله، 2010، ص 09.)**

ولا شكّ أنّ الكتاب الذي أصدره "توماس ساموبل كون Samuel Thomas Kuhnسنة 1962 بنية الثورات العلمية بعنوان The structure of scientific revolutionsقد أحدث ثورة في مختلف العلوم والمجالات. سيما في العلوم الإنسانية والاجتماعية. في هذا الصدد، يقول الباحث الانجليزي في علم الاجتماع يان كريب Ian Craibإنّ من المفارقات أنّ أحد أهم الكتب المؤثر ة في علم الاجتماع منذ ثلاثين سنة الماضية، لم يكن في علم الاجتماع على الإطلاق، بل في تاريخ العلوم الطبيعية، أقصد كتاب توماس كون بنيةالثورات العلمية.**(سراي،2018، 394.)**

أولا: نشأة البحث في علوم الإعلام والاتصال:

1-1- السياق العسكري والمؤسساتي لظهور البحث في علوم الإعلام الاتصال:

مع بداية الحرب العالمية الثانية ومن أجل افتكاك إجماع من الشعب الأمريكي للدخول في الحرب وزيادة إسهامه في المجهود الحربي جندت الحكومة الأمريكية النخب والمؤسسات من أجل الدعاية الحربية عبر صناعة برامج دعائية لتعبئة المواطن الأمريكي للتعامل مع الوضع الجيوسياسي في تلك الفترة، وأصبح من الضروري تحريك الأحاسيس و مشاعر الولاء لكي يغرسوا في نفوس المواطنين البغض والخوف من العدو وقد كانت الدعاية هي وسيلة تحقيق هذه الأهداف الملحة.**(ياسين، مفيدة، 2022، ص 112.)**

2-1- البحث في علوم الإعلام والاتصال: أسبقية التجريب على التنظير:

على الرغم من أنه مضى ما يقارب القرن على بروز علوم الإعلام والاتصال كتخصص علمي في الجامعات العالمية إلا أن النقاش يتجدد في كل مرة ويعود إلى الواجهة ومرد ذلك إلى أن هذه العلوم لم تظهر نتيجة نقاشات ثقافية فلسفية للنخبة الفكرية في المجتمع وإنما فرضتها تطورات تقنية تكنولوجية برزت الحاجة إلى إيجاد أطر داخل الجامعات من أجل تفسريها فالعلوم في أغلبها نمت وفق نموذج تطوري تبدأ عادة بالمرحلة الفلسفية بالنسبة للعلم الذي هو في طور الظهور بحصول تراكم معرفي كبير على مستوى تخصص علمي ما. مما يؤدي إلى عجز أدواته التحليلية (مناهج، أدوات بحث) عن معاجلة هذا الكم المعلوماتي. الأمر الذي يدفع إلى التفكير في إيجاد أدوات تحليل بديلة للقيام بالمهمة المذكورة. ومن أجل تحقيق هذه الغاية لابد من الدخول حتما في مرحلة فلسفية للعلم الذي هو في طور الظهور حيث يتم يف هذه المرحلة التركيز على تحديد مجالات اهتمام أساسية جديدة عبر تكوين مفاهيم عامة وإعادة النظر فيالافتراضات الأساسية المعروفة وكذا في مناهج البحث وأدواتها المستخدمة فيجمع المعلومات ليتم الانتقال مباشرة إلى المرحلة التجريبية التي يختبر فيها مضمون هذا الاتفاق ميدانيا من خلال القيام بتطبيق أدوات التحليل الجديدة فيبحث الموضوعات المحددة.**(ياسين،مفيدة، 2022،ص113.)**

ثانيا: نماذج من البراديغمات السائدة في علوم الإعلام والاتصال.

ارتبطت نشأة وتطور بحوث ودراسات الإعلام في العشرينات من القرن الماضي بالنموذجين الوضعي والسلوكي paradigm behaviourist and positivist فقد استمدّ التخصّص الجديد الكثير من منطلقاته، ومفاهيمه، وأطره النظرية والمنهجية من

هذين النموذجين. في هذا الإطار، ركّزت بحوث الإعلام وما تزال على تأثير وسائل الإعلام في الجمهور، اعتمادا على ما يعرف بدراسات الجمهور، وأهملت إلى حدّ كبير دراسة مضمون وشكل الرسالة الإعلامية، التي يفترض أنها تحدث التأثير المطلوب أو المرغوب من وجهة نظر المرسِل أو القائم بالاتصال، سواء كان شخصا أومؤسسة إعلامية.**(سراي، 2018، ص 402.)**

2-1- البراديغم السلوكي:

ظهرت الاتجاهات السلوكية في علم النفس في الولايات المتحدة الأمريكية، في العقد الثاني من القرن العشرين، وسادت في علم النفس لمدة تزيد عن ثلاثين ستة تقريبا. اهتم السلوكيون الأوائل بدراسة الأحداث البيئية كمثيرات في علاقتها بالسلوك، ولاحظوا أنّ التعلم يكون من خلال الخبرة المكتسبة، الناتجة عن التعرض للمثيرات البيئية وتعزيزها، أكثر من تأثير العوامل الوراثية .

وتركّز الدراسات السلوكية على الظواهر السلوكية الخارجية التي يمكن ملاحظتها، وعلى دراسة المنبهات التي تستثير أشكالا معينة من الاستجابات التي تأخذ شكلا صريحا يمكن ملاحظته. وبذلك، فهي لا تثق كثيرا بالشروح والافتراضات المتعلقة بالفكر والمعتقدات، ومختلف العمليات العقلية الداخليةالتي لا يمكن ملاحظتها .خضعت هذه الدراسات للتطوير فيما بعد من خلال جهود علماء النفس وعلم النفس الاجتماعي. وأصبحت تعرف بنظريات المثير والاستجابة أو نظريات التعلم، تهتم جميعها بالسلوكالفردي في علاقته بالمثيرات الخارجية والتركيز على أنّ هذا السلوك هو عصبي متعلَّم في البداية.**(سراي، 2018،ص 403.)**

2-2- البراديغم السيبر نيطيقي:

إنّ مفهوم السيبرنطيقا Cybernetics يعني التحكم والضبط، استنادا إلى المعنى اللغوي اللاتيني للمصطلح، والذي يعود إلى kubernetikeوهو المصطلح الذي أطلقه "أفلاطون" على موجّه السفينة، والسيبرنطيقا تقوم على التغذية المرتدّة من خلال متابعة وضع ما خلال فترات زمنية 36معينة لتحديد الوضع اللاحق، أي أنها تقوم أساسا على المعلومة .أحدث ظهور السيبرنطيقا ثورة علمية خاصة في ميدان التكنولوجية، ويعود الفضل في وضع أسس السيبرنيطيقا إلى عالم الرياضيات الأمريكي "نوربرت

وينر1894-1964 Wiener Norbert لحلّ مشكلة عسكرية خلال الحرب العالمية الثانيةنشر "وينر" كتابه "السيبرنيطيقا أو التحكم والاتصال عند الحيوان والآلة"، خلال الأربعينيات من القرن الماضي، وقد ضمّ نه رؤيته لمسألة التنظيم داخل المجتمع المستقبلي، القائمة على مادة أولية جيدة ستظهر قريبا وتتمثل، حسب رأيه، في "المعلومة". وبالرغم من أنه دعا إلى أخلقة هذا النموذج الأعلى لـ "مجتمع المعلومات"، إلا أنه حذر في نفس الوقت من مخاطر الانحرافات التي قد يحملها. يقول "وينر": إنّ مجموع المعلومات في نظام ما، هو مقياس درجة تنظيمه، والتدهور هو مقياس درجة فوضويته، حيث أنّ كل منهما يمثل الوجه السلبي للآخر.**(سراي، 2018،ص 405.)**

2-3- البراديغم الوظيفي:

يعد هذا البراديغم خلفية لكثير من النظريات المتعلّقة بالسير العام للمجتمع، ومسلمته الأساسية هي النظر إلى المجتمع على أنّه كل تنظيمي، تفسَّر مختلف عناصره بالوظيفة التي تؤديها. يهتم هذا البراديغم بالطريقة التي تؤثربها بعض الظواهر في سير النظام الاجتماعي. ويشكّل الاتصال الجماهيري إحدى الظواهر الملائمة للتحليل الوظيفي.

يعرف النموذج الإرشادي للبنائية الوظيفية بالنموذج المحافظ، لحرصه على مراعاة التوازن بين مكونات النظام الاجتماعي ومعارضته للتغيير. ويركز التحليل الوظيفي على توضيح المهام التي يسعى القائم بالاتصال إلى تحقيقها، والنتائج التي تحدث دون أن يهدف إليها. ويسعى في المستوى الأول إلى قياس تأثيرات عملية الاتصال بشكل عام كعملية اجتماعية، وعلى مستوى ثان يدرس وسيلة إعلامية أو أكثر، و في المستوى الثالث يقوم بتحليل وسيلة الاتصال كمؤسسة، أما المستوى الرابع فيدرس أوجهالنشاط الإعلامية الأساسية التي تتم بواسطة الإعلام .إنّ تيار الوظيفية السوسيولوجية، كان محاولة لإعادة النظر في نظرية "لاسويل Lasswell "، التي تنظر إلى الاتصال كنقطة بدء ونقطةنهاية، فرفض هذا التيار المبدأ الآلي حول التأثير المباشر غير المكيّف حسب الوضعيات، متوقفا عند المتغيرات الوسيطية، بين نقطة البدء ونقطة النهاية.**(سراي، 2018،ص407.)**

2-4- البراديغم النقدي:

ترجع جذور الدّراسات النّقدية في بحوث وسائل الإعلام إلى ألمانيا في إطار " مدرسة فرانكفورت"، التي دشّنت دراسات الاتصال النّقدية في الثلاثينيات من القرن الماضي، والتي اكتسبت هذه التّسمية لمعارضتها للتيار الأمبريقي الأمريكي، أُسّسَت سنة 1923 من طرف "ماكس هوركهايمر Horkheimer Max "و"فريدريك

بولوك Pollock Freidrich،و"تيودور أدورنو Adorno Teodor"و"والتر بنجامين Benjamen Walter،و"هربرت ماركيوز Marcuse Herbert المتأثّرين بالنظرية الماركسية؛ حيث ركّزت تحليلاتهم على العلاقة بين وسائلالإعلام والثقافة، من خلال مقال لِـ "هوركهايمر وأدورنو) Horkheimer Adorno سنة 1947 بعنوان:" الإنتاج الصناعي للمضامين الثقافية ."يحُسب للنظريّات النقدية ذات الجذور والأصول الهيغلية فيما يتعلق بالنظرة إلى العقل ومفهوم الجدلية، وأيضًا الماركسية المؤسّسة لمفهوم الهيمنة في علاقتها بالثروة، ربط الصلة الوثيقة بين العلوم الاجتماعية والفلسفة، وتشمل هذه النظريات النقديّة اتجاهين أساسيين هما: اتجاه مدرسة فرانكفورت والنظرية الثقافية النقدية، وأيضا اتجاه نظرية الاقتصاد السياسي، مع العلم أنّ الخيط المنظم لهذين الاتجاهين، ينهل من المنطلقات الاجتماعية والفلسفة نفسها، ويستند إلى المسوغات الأساسية للنظرياتالنقدية.**(سراي، 2018،ص408.)**

2-5- البراديغم التفسيري:

تحاول النظريات التفسيرية شرح الأفعال من خلال معانيها، وتأخذ هذه النظريات أشكالا متنوعة .فالكثير من النظريات التفسيرية تهتم بالرسائل أو النصوص، وتحاول بعضها تحديد ما الذي يعنيه القائمون بالاتصال بأحاديثهم أو مقالاتهم، أو ما يقومون به من أشكال تعبيرية، ومن أبرز الاتجاهات الفكرية في النظريات التفسيرية الاتجاه الظاهراتي الذي يدرس المعرفة التي تنشأ وتظهر في الخبرة الواعية .والاتجاه التأويلي الذي يهتم بالتفسير النصي للتعبير الإنساني.**(سراي، 2018،ص410.)**.

ثالثا: التقاطع المعرفي لتخصص الاتصال مع العلوم الأخرى: عجز ذاتي في التخصص أم ضرورة لفهم الظواهر الإعلامية والاتصالية:

شهد البحث في مجال الإعلام والاتصال نقاشا مستفيضا حول ما إذا يمكن اعتبار الاتصال مبحثا علميا مستقال بذاته أم أنه مبحثا متعدد التخصصات. فارتباط ظاهرة الإعلام والاتصال بالنشاطات المتنوعة للإنسان والمجتمع جعلها موضع العديد من الاهتمامات العلمية أي موزعة على أكثر من تخصص علمي مما كان وراء مواجهتها لصعوبات كبيرة تتمثل في الغموض المنهجي والنظري الذي تعانيه علوم الإعلام والاتصال وهذا الغموض تسبب في عدم إمكانية تحديد موضوعاتها بصورة مستقلة، وإيجاد المناهج والأدوات الخاصة بمعالجتها وبلورة النظريات ذات العلاقة ببحثها.

فتخصص الاتصال ومنذ نشأته وهو يواجه أزمة هوية وكثيرا ما يلقى إليه بمجموعة من التساؤلات تتمحور أساسا حول ما إذا كان الاتصال نشاط بحثي له موضوعات محددة على غرار ما هو قائم لدى العلوم الأخرى مثل علم الاجتماع والنفس وغيرها، وحول ما إذا كان لإعلام والاتصال اهتماماته المستقلة وأدوات بحثه المتميزة ونظرياته الخاصة. وعند هذه النقطة عادة ما يعاير تخصص الاتصال انه لا يمكنه أن يكون تخصصا مستقلا وهو يستعير عدته النظرية من علوم أخرى، وعند هذه النقطة أحصى "كرايغ" سنة 1999 سبعة تقاليد أكاديمية في نظريات الاتصال تقوم بالتنظير للاتصال بطرق مختلفة : البلاغة، السيميائية، الظاهر اتية، السيربنتيكية، علم النفس الاجتماعي علم الاجتماع الثقافي وعلم الاجتماع النقدي. بينما نجد أن لعلوم الطبيعية تقليدا نظريا واحدا ولعلم النفس اثنني (السلوكية والتحليل النفسي)، ونحن لدينا سبعة أو أكثر.**(ياسين،مفيدة، 2022،ص 115.)**

رابعا: لماذا نماذج الاتصال ونظريات الاتصال؟:

أثبتت الدراسات العلمية الحديثة في مجال علم الاتصال أنه يوجد اختلاف حقيقي بين النظريات والنماذج ويمكن لنا تحديد هذا الاختلاف في النقاط الآتية:

- يوجد تداخل بين النظرية والنموذج حيث ان النموذج يفهم في سياق النظرية .
- النموذج يساعد النظرية في عملية البناء والفهم والتحليل.
- النظرية بناءكلي لعمل الإعلامبجزيئاته أما النموذج فهو بناء جزئي لعمل الاعلام.
- النظريات تركز على العلاقات الخارجية والمؤسسية أما النموذج فهو يركز على العمليات الداخلية الإدراكية للإنسان.
- النظريات أكثرتوجها للمجتمع وعناصره المادية والعلاقات الدولية والمحلية. النموذج أكثرتوجها للانسان نفسهمن خلال محاكاة أفعاله وتوجهاته.
- النظريةهي تصور بنيوي للعلاقات السببية أو نظام للملفات الوظيفية والبنائية للظواهرالاجتماعية .
- النموذج هو محاولة علمية شديدة الاهمية لفهم كيف يعمل الاعلام وهو أكثر ثباتا وأكثرقابلية للتعميم على الافراد. **(الدليمي، 2016، ص35.)**
- النظرية أكثر تغيرا وأقل قابلية على التعميم لارتباطها بالمجتمع الذي يتسم بقلة التجارب والقواسم المشتركة على عكس الأفراد.
- النظرية في المعاجم تعني قضية تثبت بالبرهان أو طائفة من الآراء تفسرالوقائع العلمية أو البحث في المشكلات القائمة على العلاقة بين الاشخاصوالمواضيع أو السبب والمسبب.

▪النظرية هي نوع من التعميم للنشاط المعرفي ونتائج الممارسة من خلال التحقق من الواقع والعمل على تفسير هذه النتائج والتنبأ بالقوانين المنظمة.
▪النظرية تعني المبادئ العامة ولاقوانين الحاكمة لعلاقات الاشياء الظاهرة أو الكامنة الداخلية أو الخارجية وتعكس الواقع روحيا أو عقليا أو تجريبيا. **(الدليمي، 2016،ص36.)**

خامسا: الخصوصيات المنهجية في علوم الإعلام والاتصال.

تظهر الخصوصيات المنهجية البحثية في علوم الاعلام و الاتصال من خلال أسلوب جمع المعلومات وتحليلها. ففي حين يميز الباحثون بني منهجين رئيسيّن هما : المنهج الكيفي والمنهج الكمي، وهمايمثلان مدرستين مختلفتين لهما روادهما والمختصون فيهما، وجدنا من خلال التجربة البحثية أنهام متلازمان في أغلب الأحيان ونحتاج اليهما معا لتحقيق أهداف العديد من الدراسات التي تحتاج الى توظيف أساليبهما المتميزة للوصول الى نتائج علمية قيمة من شأنها ان تساهم في زيادة التراكم المعرفي المطلوب في حقل الاعلام والاتصال.**(العبد الله، 2010، ص 164.)**

وتستمد علوم الإعلام والاتصال العديد من أشكالها البحثية من سائر العلوم الانسانية والاجتماعية التي تنتمي في النهاية اليها، فيستخدم مصطلح أمبرييقي empiricalحتى لا يختلط بالتجريبي experimental الذي يعني درجة عالية من الدقة في التجربة موجودة في الأبحاث العائدة لعلوم الطبيعة، وغير موجودة في الأبحاث العائدة للعلوم الإجتماعية والانسانية. وأول من استخدم صفة امبرييقية هو كلود برنار في كتابه "مقدمة للطب التجريبي" حيث يفرق بين الأمبرييقية وبين التجريب، عن طريق التفريق بين الملاحظة وبين التجربة. فالملاحظة، في رأيه، تمهيدية، عامة، أما التجربة فموجهة في إطار محدد ومسلحة بالأجهزة الدقيقة.

على هذا الأساس، وبما أن التجربة في الأبحاث العائدة إلى العلوم الإجتماعية والانسانية تتصف بعدد من الصفات، بينها أنه يصعب عليها التعامل مع الموضوع على أنه مادة بحتة، بل تفكيكية يصعب التحكم بها، لا تتمتع بسمة الضبط. فمن أولى ميزات الظاهرة المجتمعية تداخل المتغريات إلى درجة كبيرة جداً، وأنها في تغير دائم ومستمر.**(العبدالله، 2010،ص 165.)**

*** المراجع:**

1- مي، العبد الله،**(2010)**، البحث في علوم الإعلام والاتصال، ط1، دار النهضة العربية: بيروت- لبنان.

2- سعاد، سراي، **(2018)**، البراديغم في علوم الإعلام والاتصال، مجلة علوم الإنسان والمجتمع، المجلد 07، العدد28، ص 393-422 .

3- جبابلية ياسين، طاير مفيدة، **(2021)**، البحث في علوم الإعلام والاتصال، المجلد 05، العدد01، ص108-126.

4- عبد الرزاق، الدليمي، **(2016)**، نظريات الاتصال في القرن الحادي والعشرون، د.ط،دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع: عمان- الأردن.